تأليه الإنسان في الديانات السماوية

د. رنيم يوسف[1]

ملخّص

لن نجد موضوعًا شائكًا ومُشكلاً في الذهنية الحضارية للإنسان، منذ القديم وحتى الآن، مثلما نجد في إشكالية الألوهية ومعناها؛ فقد أنتج العقلُ البشريُّ كثيراً من التساؤلات والأفكار والنظريات التي حاولت أن تشرح معنى هذا المصطلح، وتُقدِّمَ الإجاباتِ الشّافية لأسئلة الإنسان المُلحّة بهذا الخصوص، فربمَّا وجدنا الكثيرَ من الأفكار التي تُصوِّر الإلهَ بتصوير إنسانيٍّ، بمعنى أن الإنسان قد تصوَّرَ إلهَه بمعايير السَّواء والكمال نفسِها التي وَجد عليها الكونَ والطبيعة والمجتمع: فإلهُ الزنوج زنجيٌّ، وإلهُ البيض أبيضُ، ... حتى قيل إنه لو تسنَّى للحيوانات أن تُصوِّر الإلهَ لَصوَّرته على هيئتها نفسِها، وتطوَّر هذا المفهومُ لِتنسحبَ صفاتُ الإله وأعمالُه على الإنسان نفسه، كما أُضيفت صفاتُ الألوهية على بشرٍ مُعيَّنين كما حصل مثلاً في الحضارات القديمة، مثل تأليه الفِرعون في الحضارة المصرية القديمة، وغير ذلك من الأمثلة ... أمَّا في الديانات السماوية فقد تمَّت مقاربةُ الموضوع من أبعاد أخرى، وتراوحَت الأفكارُ حوله بين التَّنزيه والتَّشبيه والحُلول و... غيرها. وعلى الرغم من ذلك، فلا بدَّ لنا من الإقرار بأن مفهوم التَّنزيه هو الأساس الذي قامت عليه الأديانُ السَّماوية بوصفها أديانًا توحيدية، تنظر إلى الإله بصورةِ المُفارِق، الذي لا نظيرَ له ولا شبيهَ، وليس كمثله شيءٌ، وفي هذا البحث سنحاول أن نُلقي الضَّوء على الظروف والأحوال والأفكار التي لَوَّثَت مفاهيمَ التَّوحيد والتَّنزيه وأخرجته عن إطاره الفطريِّ الصَّحيح.

الكلمات المفتاحية: تأليه، تنزيه، تشبيه، توحيد.

1 - مدرس في قسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة دمشق.

مقدمة

لا شكَّ أنَّ التوحيد هو أصلُ الديانات السَّماوية جميعِها، وهو المفهوم الأبرزُ الذي أسهم في انتقال العقائد الدِّينية من مستويات الوثنية والتعدُّدية والثنوية ... إلى مستوى أكثر تجريدًا وتطوُّرًا؛ ذلك أن إذابة شخوص الآلهة المُتعدِّدة في الديانات القديمة في شخص إلهٍ واحد، بيده مقاليدُ الأمور، وبحوزته السلطانُ الأقوى، هو المعيار الذي تبلورَت وَفقَه العقيدة الدِّينية للإنسان، وأصبح على إثره هذا المفهوم (مفهوم الإله) ذا معنًى أكثرَ دِقّةً وتحديدًا؛ ففي الديانة اليهودية لم تكن فكرةُ الألوهية مُحدَّدة المعالم منذ البداية، ولم تتبلور بالشكل النِّهائي، إلا فيما بعد موسى ﷺ بأربعة قرون؛ ذلك أن موسى ﷺ قد حاول لمَّ شَتات مَن تَبعه من الأقوام في بوتقة واحدة، وأكَّد في غير مرة على مبدأ تنزيه الإله الواحد عن كل صفة وكلِّ شَبيه، ونادى بـ(يهوه) كإله واحد، واختصر في شخصِه جميعَ معاني الرُّبوبية والألوهية.

والحقُّ أن ما قدَّمته الديانةُ اليهودية في هذا المضمار كان جديرًا بالاهتمام، وعلى الرغم من احتواء التوراة العبرية على إشارات لآلهة أخرى غير (يهوه) فإنَّ هذا لا يَنفي الإقرارَ بأن الإسهام الأبرز لليهودية كان عقيدة التوحيد، ولكن، وككل الديانات، فإنَّ هذه الفكرة لم تتبلور بالشكل النهائي إلا بعد أن مرَّت بعدّةِ أطوارٍ ومستويات، وهذا ما سنناقشه في بحثنا هذا عندَ تناول الديانة اليهودية.

وبالمثل: فعند الحديث عن الديانة المسيحية سنجد أنفسَنا مُلزَمين، بداعي الدِّقة والأمانة الفكرية، أن نُقِرَّ بأن التوحيد هو أساس هذه الديانة، وأن هذه الفكرة هي من الأساسيات التي اضطلع بترسيخها السيِّد المسيح ﷺ، الذي أكَّد أنه محكوم في وجوده ومصيره لإله واحد، صفاته المحبةُ والعطف على أبنائه من بني البشر، ولذلك فقد أرسلَ إليهم المسيحَ ﷺ ليكون

مخلِّصًا لهم من آلامهم وعذاباتهم، تلك الآلام التي اكتسبها بنو البشر بفعل الخطيئة الأولى (خطيئة آدم). وللوصول إلى هذه الفكرة كان لا بدَّ لنا من الإضاءة على الفهم الصحيح للثالوث المقدَّس المسيحي (الأب، الابن، الروح القدس)، وكيف دخلت أفكارٌ تَشي بتأليه المسيح من قبل الطوائف والمجامع المسيحية المتعدِّدة، وسيقودنا البحث إلى تعريف القارئ بالمجامع المسيحية المُتتالية: لماذا نشأت؟ وكيف؟ وما الأفكار التي حاربتها تلك المجامعُ بالتوازي مع الأفكار التي أكَّدت عليها، خاصة فيما يتعلَّق بطبيعة السيِّد المسيح.

وأما في الديانة الإسلامية فقد كانت هذه الفكرة أكثر تحديدًا ودقة في النظر إلى الإله، واعتُبرت عقيدة التوحيد هي العقيدة الأساسية التي على أساسها يُصنَّف الناسُ بينَ مؤمنين ومشركين، فلا تهاوُنَ في الإسلام في هذه الفكرة، ولا سبيلَ لإعطائها أبعادًا مختلفة، فهناك فقط بُعدٌ واحد هو الله، الذي ليس كمثله شيء، ولا تُدركُه الأبصار، الواحد، الأحد، الفرد، الصَّمد، الذي لم يلد ولم يُولَد، ولم يكن له كفؤًا أحدٌ: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ¤ اللَّهُ الصَّمَدُ ¤ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ¤ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:1 - 4]. فالآيات واضحةٌ غير قابلة للتأويل، ولا مجالَ لوضع الإله في دائرة واحدة مع أي موجود آخر. وقد كانت الأفكار المُغايرة لهذا الرأي محدودةً في جماعة من المُغالين، الذين أخذ بهم الشَّطحُ مأخذَه، فتجاوزوا الحدَّ وخرجوا عن القصد، وأهم ما تميَّزت به تلك الجماعات هو الإقرار بالتَّشبيه والتَّجسيم، بمعنى حلول الإله، أو جزء منه، في شخص مَن يُقدِّسونه. إلا أن تلك التجاوزات كانَت محدودةً في الفكر الإسلامي، وبقي هذا الفكر يُؤكِّد في كل مناسبة على الإيمان بوحدانية الإله الذي لا شريكَ له: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ¤ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: 162 - 163].

هذه الأفكار وغيرها سنُحاول في بحثنا هذا أن نلقي الضوءَ عليها، سائلين المولى -عز وجل- أن يُوفِّقنا لما نسعى إليه، وهو - تعالى- مِن وراء القصد.

أولًا: تأليه الإنسان في اليهودية

لم تكن فكرة الألوهية في اليهودية مُحدَّدةَ المَعالم منذ بداية نشأتها حتى الآن، وظلَّت هذه الفكرة تتأرجح بين التوحيد والتَّنزيه من جهة، والتَّشبيه والتجسيم من جهة ثانية، ولم تتَّضح معالم

هذه الفكرة إلا في زمنٍ مُتأخِّرٍ عن موسى بأربعة قرون؛ «.. إن فكرة الألوهية ظلَّت مضطربة في عقولهم إلى نهاية المرحلة التي تمَّ فيها تدوين سِفرَي التَّكوين والخروج، أي إلى ما بعد موسى عليه السلام بأربعة قرون، فصوَّروا اللهَ في صورة مُجسَّمة، ووصفوه بكثير من الصفات التي لا تَليق به كالنَّقص والضَّعف والكَذب ...»[1].

1 - تطوُّر مفهوم الألوهية في الديانة اليهودية

أ - التوحيد أصل الديانة اليهودية

لا بدَّ لنا من الإقرار بأنَّ التوحيد، وتَنزيه الخالق عن كلِّ شَبَهٍ، هو أصل الديانات كلِّها، ولا سيَّما الديانات السَّماوية، ولم تخرج الديانة اليهودية عن هذه القاعدة الأساسية التي لا يَستقيم كُنْهُ أيِّ دين إلا بها؛ فنبيُّ الله موسى ﷺ قد أكَّد في كل مناسبة أنه مُرسَل من إله واحد عظيم، بيده الأمرُ كلُّه، ولا نظيرَ له ولا عديل، فنقرأ في القرآن الكريم عن قصة النبي موسى ﷺ مع السامريِّ، الذي اتَّخذ من العجل رَبًّا، فكان ردُّ موسى ﷺ عليه: ﴿**قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ¤ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [طه: 97 - 98]، كذلك، في سِفر الخروج تمَّ التأكيد على هذه الفكرة عندما خاطب اللهُ موسى ﷺ: «... هكذا تقولُ لبني إسرائيل: يهوه إلهُ آبائكم، إلهُ إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب، أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد، وهذا ذِكري إلى دَورٍ فدَور ..» [سفر الخروج 15:3].

جميع هذه المبادئ كانت الأساس الذي عمل موسى ﷺ عليه، لتوحيد شتات الجماعات التي آمنَت به واتَّبعته، فنادى ﷺ بـ(يهوه) كإله واحد، وعليه فقد اتَّخذ (يهوه) مكانتَه في الديانة اليهودية، كإله رئيسٍ بيده مقاليدُ الأمور. نعم إنَّنا نجد في التوراة العبرية بعضَ الإشارات لآلهة غيرِ يهوه، ولكن "هذا لا يَنفي الزَّعم بأنَّ الإسهام الأساسيَّ لليهودية في الفكر الدِّيني، في الشرق الأوسط، كان عقيدة التوحيد؛ لأن قراءة متأنية عن كثب للنصِّ تُبيِّن أن تلك الآلهةَ تختلف عن يهوه في ناحيتين: الأولى: أنها تَدين في أصل وجودها إلى (يهوه)، والثانية: أنَّها خلافًا لـ(يهوه)

1 - محمود الساموك: المعتقدات والأديان وفق منهج القرآن، ص118.

ستموت مثلَ كلِّ الفانين.»[1]، ونقرأ في النصوص اليهودية إقرارًا واضحًا بوحدانية الإله: «أنا الرَّبُّ وليس آخر، لا إله سواي، أنا الربُّ وليس آخر، مصدر النُّور وخالق الظلمة، صانع السلام ... أنا صنعتُ الأرضَ، وخلقتُ الإنسانَ عليها..» [أشعيا 5: 45].

ب - دخول فكرة الشِّرك إلى الفكر اليهودي

يُفيد باحثون بأن «بني إسرائيل» لم يُوفَّقوا في الحفاظ على عقيدة الإله الواحد المُنزَّه، فانحرفوا نحو التَّجسيم بشكل أدَىّ إلى تأصيل هذا الاتِّجاه فيهم، وأحد الأمثلة على ذلك ما ذكرناه سابقًا من قصة السامري ونبي الله موسى عليه السلام، الذي يقول عنها (أحمد شلبي): «وعلى الرغم من ارتباط وجودِهم بإبراهيم، إلا أن البدائية الدِّينية كانت طابَعَهم، وتُعدُّ كثرةُ أنبيائهم دليلاً على تجدُّد الشِّرك فيهم، وبالتالي تجدُّد الحاجة إلى أنبياء يُجدِّدون الدَّعوةَ إلى التوحيد، وكانت هذه الدَّعوات قليلةَ الجدوى على أيّةِ حال..»[2].

ج - إضفاء الصفات الإنسانية على الإله

لم يظهر الإلهُ اليهوديُّ عبر كل مراحل تاريخه في صيغة الإله المُنزَّه عن الخطأ، العارف بكل مجريات الأمور، وقد أضفى اليهودُ على الإله الصِّفاتِ الإنسانية التي اتَّصفوا هم بها، بما في ذلك رذائل الصِّفات كالغشِّ والكذب و... غيرها، لقد «صاغ اليهودُ (يهوه) في الصورة التي كانوا هم أنفسهم عليها، فجعلوا منه 'إلهًا صارمًا'، ... وإن كان لا يطالِبُ بالاعتقاد بأنَّه عالِمٌ بكل شيء، حتى إنه لم يَطلب إليهم أن يَرشُّوا بيوتَهم بدماء الكبائش المُضحاة، حتى لا يهلكَ أبناؤُهم مع من يُهلِكُهم من أبناء أعدائهم..»[3]، حتى إنه يَندم على قراراته التي يتَّخذها، كما أن الغضب المُفاجئ لهذا الإله يَسوقه في كثير من الأحيان لإحداث الدَّمار بكل ما صنع، دون أن يَعِيَ ما سينتج عن غضبه هذا، وهو يكذب ويُخادع «بدليل أنه كذبَ بقصد الإصلاح بين إبراهيم وسارة زوجته، ولذلك، فالكذب حسنٌ سائغ لأجل الإصلاح.»[4].

---

1 - هوستن سميث: أديان العالم، ص.ص. 338 - 339.

2 - أحمد شلبي: اليهودية، ص173.

3 - سليمان مظهر: قصة الديانات، ص341.

4 - المصدر نفسه، ص366.

ولعلَّ هذه الفكرة قد دخلَت على الديانة اليهودية من اختلاطهم بالأقوام الأخرى في مرحلة شَتاتهم وسَبيهم؛ فقد تشبَّعوا بالذِّهنية الحضارية لوادي الرافدين أثناء السَّبي اليهودي، تلك الذهنية التي تُضفي على الآلهة جميعَ الصِّفات الإنسانية، سواء محمودها ومرذولها: فالآلهة الرافدية مثلاً قد نَدمت على الطوفان العظيم الذي دمَّرَت به كلَّ شَيءٍ، ولم يبقَ من الوجود شيء إلا ما حملَه معه (أتراخسيس)[1] في فُلْكه العظيم[2].

وإذن فالإله اليهوديُّ ليس معصومًا عن الخطأ، وهذا ما نقرؤه في التِّلمود، فهو يَندمُ على تركه اليهود في الذُّلِّ والمَسكنة، ويَندَمُ أيضًا على سماحه بتدمير «أورشليم». نعم، إن إضفاءَ الصفات الإنسانية على الإله يُعتبرَ أنسنةً لهذا الإله من جهة، ولكنه من جهة أخرى يُفهَم على أنه تأليه للإنسان، ذلك الأخير الذي أسبَغَ صفاته على إلهه ليفتح باب المشاركة في الطبيعة والفعل مع هذا الإله أولاً، ولِيُبيحَ لنفسه الكثيرَ من التجاوزات والأخطاء ثانيًا، وبذلك سيُضفي الشَّرعية على سلوكياته اللا أخلاقية، ويُلبسها لَبوسًا إلهيًّا، كيف لا والإله نفسُه يَرتكب الحماقات، وتأخذه سَطوة الغضب والانتقام إلى ما لا تُحمَد عُقباه، ولِيَكتسبَ بذلك الشعبُ اليهودي (شعب الله المختار) -على حد زعمهم- كلَّ الحقِّ والشرعية فيما يُقدِمون عليه من انتهاكات.

د - كيف ورَد الإنسان-الإله في الديانة اليهودية

قلنا سابقًا: إنَّ فكرةَ الألوهية ظلت مضطربةً في عقول اليهود، ولم تتبلور بالشكل النهائي إلى ما بعد سِفرَي التكوين والخروج. من ذلك مثلاً نذكر أن سفر التكوين قد ذكرَ الإلهَ ووصفه بوصف الشخص الذي يتجوَّل في جنة عدن، مُتغنِّيًا بجمال ما أبدعه. ولكن هذا الشخص فريدٌ من نوعه، ولا يُمكن وصفُه بالمادي والطبيعي أبدًا، إنه فوقَ كلِّ وصف. ومع ذلك، نقرأ في النصوص اليهودية عن الإنسان الذي يَقترب من مرتبة الإله، لا بل إنه يتفوَّق عليه في كثير من الأحيان، من ذلك مثلاً القصةُ الشهيرة التي وردت فيه عن المصارعة التي حدثت بين الإله والنَّبي يعقوب عليه السلام، تلك المصارعة التي حُسمت لصالح هذا الأخير، وهذا ما استدعى إضفاء لقب «إسرائيل» على يعقوب عليه السلام: «.. وقال أَطلِقْني لأنه قد طلعَ الفجرُ. فقال لا أُطلِقُكَ إنْ لم

1 - أتراخسيس: «المترع بالحكمة»، وهو مقابل نوح في الديانات السماوية.

2 - للاطلاع أكثر: راجع: ستيفاني دالي: أساطير من بلاد ما بين النهرين.

تُبارِكْني ¤ فقال ما اسمُكَ؟ فقال يعقوب ¤ فقال لا يُدعى اسمُكَ فيما بعدُ يعقوب بل إسرائيل، لأنَّكَ جاهدتَ مع الله..» [سفر التكوين 32: 26 - 28].

وإذن فقد اكتسب يعقوب «صفات إلهية» بفعل المنازلة بينه وبين إلهه، تلك المنازلة التي تُعبِّر بحد ذاتها عن ذهنية الإنسان اليهودي، تلك الذهنية التي لا تجد حرجًا في النظر إلى الإله في كثير من الأحيان كشخص عادي يُواجهه الإنسانُ نِدًّا لندٍّ، ولكن، وعلى الرغم من كل ما ذكرناه فإننا لا نستطيع القولَ بملء أفواهنا بأنَّ الدِّين اليهودي يُقِرُّ إقرارًا كاملاً بتأليه الإنسان؛ ذلك أنه – وكما أكدنا سابقًا- أن التوحيد هو أصل الديانات وأساسها، إلا أننا نُرجِّح الفكرةَ التي ذهب إليها الباحثون من أن «الأرجح أن ديانة الآباء كانت ديانةً توحيدية بسيطة ... وربمَّا كان الاعتقاد السائد هو الاعتراف بوجود آلهة أخرى كحقائق مشاهدة مع عدم الاعتراف بها كآلهة على نفس المستوى الذي عليه (يهوه) ... ولأول مرة أيضًا يتمُّ وضع طبيعة خاصة للألوهية، من أهم عناصرها أن الإله لا يُمكن تصويره، أو تجسيده في صورة من الصُّوَر.»[1].

ثانيًا: تأليه الإنسان في المسيحية

مثلما كان علينا الإقرار في بداية الحديث عن الديانة اليهودية أن التوحيد هو أصل الدِّين وأساسه، فكذلك، علينا الأخذ بمثل هذا الرأي عند الحديث عن الديانة المسيحية، التي أقرَّت بأن الله واحدٌ لا شريكَ له، وأن توحيد الله هو الغاية والأساس الذي تُنادي به المسيحية والأديان السماوية على وجه العموم، «وتصف الأناجيلُ تصوُّر عيسى ﷺ للألوهية، فتُقرِّر أنه فَهِمَ الألوهيةَ في صورة الإله الحكيم العادل القويِّ خالق العالم والمسيطر على التاريخ، وأنه الإرادة المُطلَقة، وحاكم الطبيعة والإنسان، وأن البشر جزءٌ من خَلْقه.»[2].

ولكنَّ مفهوم التوحيد في الديانة المسيحية قد اتَّخذ أبعادًا أخرى، وتفرَّدت هذه الديانة في التوسُّع في هذا المفهوم، وأصبح شخص السيِّد المسيح ﷺ جامعًا لكثير من الأفكار والرُّؤى التي تُحاول أن تَفهم كُنْهَ الإله وطبيعتَه.

1 - محمد خليفة حسن: تاريخ الأديان، ص.ص. 181 و184.

2 - المصدر نفسه، ص216.

1 - تجسد المسيح وألوهيته

لم تتَّفق جميعُ الطوائف والمذاهب المسيحية على رأي واحد حول طبيعة المسيح، وكان هذا الموضوع مثار جدلٍ بينها، تَفرَّقَت على إثرِه طوائفَ مُختلفة على ماهي عليه الآن، وعلى الرغم من أن جميع الطوائف تعتقد بأن الله ثلاثة أقانيم: الأب والابن والروح القدس، إلا أن النظرة إلى ثنائية اللاَّهوت والنّاسوت، في شخص السيِّد المسيح، كانت مثارَ خلاف كبير بينها.

فكيف تبلورَ مفهوم التَّثليث في المسيحية؟

2 - التَّثليث في العقيدة المسيحية

انبثقَ مفهوم «التثليث» من العقيدة الأساسية في الديانة المسيحية، وهي حضور المسيح إلى هذا العالم تكفيراً عن خطايا الناس وتَخليصًا لهم، وهو بموته على الصليب قد كفَّر عن كل المؤمنين به، حيث إن المسيح عليه السلام هو تجسيد لِحُبِّ الله للبشر، والمُشفق عليهم من هول العذاب، وأن المسيح هو الله في شكل إنساني مُعبِّدًا الطريق للإنسان في سبيل الخلاص: «لقد جاء المسيحُ لا ليُخدَمَ بل لِيَخدُمَ، ولِيَبذُلَ نفسَه فديةً عن كثيرين.» [مرقس 10: 45]، كذلك، جاء في رسائل (بولس الرسول): «إنَّ الله كان في المسيح مُصالحًا للعالم نفسه غيرَ حاسبٍ لهم خَطاياهم» [كورنثوس2 5: 19]. و «فإنَّكُم تَعرفون نعمةَ ربِّنا يَسوع المسيح أنه من أجلكم افتقَرَ، وهو غنيٌّ، لكي تستغنوا أنتم بِفَقرِه.» [كورنثوس2 8: 9].

والدَّلائل كثيرة في الأناجيل المَسيحية، التي تُقِرُّ بأنَّ مُهمَّة المسيح في هذا العالم هي تحمُّل العذاب عن المؤمنين، وتحقيق الخلاص لأرواحهم من الخطايا، «وقد نتجَ عن هذا التفكير اللاهوتيِّ الاعتقادُ في مفهوم التثليث. فالله كحقيقة مُقدَّسة مُطلقة يوجد في ثلاثة شخوص هي: الأب والابن والروح القدس. فالله هو الأب هو إله الأنبياء ... وهو الكائن الأسمى في الكون، والقاضي العادل، والأب الكريم للإنسان. أما الإله الابن فهو المسيح المُخلِّصُ الذي فيه تجسَّد الحبُّ الإلهيُّ للإنسان، وأما الإله الروح القدس فهو المسيح كما يعيش في فؤاد كلِّ مسيحيٍّ وُلد من جديد، وفي رسالة الكنيسة وهي تقومُ بدورها في توحيد كلِّ المسيحيين في حبٍّ مكرَّس للأب والمخلِّص الذي أرسله.»[1].

1 - محمد خليفة حسن: تاريخ الأديان، ص184.

ويَرى بعضُ الباحثين والنُّقّاد أن نزوع المسيحية -كديانة توحيدية- إلى مفهوم التثليث قد وضعها في مأزق كبير، وأضفى شيئًا من التَّناقُض في الديانة المسيحية؛ ذلك أن «الإيمان بهذا الثالوث خلقَ لهم مشكلة، تلك هي محاولة التوفيق بين الوحدانية التي هي سمة الأديان السماوية، والتي قالت بها التوراة بصراحة، وبين القول بعبادة الثالوث، وحينئذ جَدَّ جِدُّهم، وجَنَّدوا جنودَهم، وأعملوا عقولَهم، وقالوا كلامًا يُوفِّقون به، وصرَّحوا بعدم اقتناعهم أحيانًا ... ولكن على كل حال لم يكنْ بُدٌّ من الاستمرار في القول بالتثليث..»[1]. إلا أننا نجد في الفكر المسيحي تفسيراً وتأويلاً لهذا المبدأ - مبدأ «الثالوث»- وشروحات تُفيد بأنه لا يَنفي الوحدانية ولا يَتعارض معها، إلا أننا لن نتطرَّق إلى هذه الشروحات في هذا البحث نظرًا لكون المسألة طويلة ومعقدة، ولن يَسَعَنا الخوضُ بها في هذا المقام.

ولعل فكرة "الثالوث" قد دخلت إلى المسيحية عن طريق الحضارات القديمة كالهندية والرافدية؛ ففي هذه الحضارات هناك إلهٌ مُخلِّص يتجسَّد فيه كبير الآلهة، بغية تخليص الناس من عذاباتهم الناجمة عن كونهم عصاةً مذنبين[2]، وكلُّنا يعرف تأثُّر المسيحية بهذه الأفكار الداخلة إليها بتأثير (بولس الرسول)، الذي قضى كثيراً من حياته مُتجوِّلاً في بلدان هذه الحضارات، وقد تَعَشَّق مذهبه حول السيد المسيح وطبيعته وطبيعة العلاقة بينه ﷺ وبين الإله بما ذهبَت إليه هذه الحضارات، ويُؤكِّد ذلك أننا لم نعثر في مصدر من المصادر على أيِّ إشارة إلى أنَّ السيِّد المسيحَ قد ذكرَ مفهوم «الثالوث»، أو أنه شرح العلاقة الثلاثية بينه وبين الأب وروح القدس، ولعلَّه بسبب هذه الآراء لـ(بولس الرسول) حول طبيعة المسيح وعقيدة الصَّلب أخرجَه الحواريُّون، تلاميذ السيِّد المسيح، من دائرتهم.

وهنا لا بدَّ لنا من الإضاءة على عدة مقاربات هامة:

3 - كيف شرح يوحنا مفهوم المسيح ابن الله

يُفيد (يوحنا) بأنَّ السيِّد المسيح ﷺ واحدٌ معَ الأب بالمعنى الرُّوحي، وأما غايةُ وجوده فهي تخليص الناس من الخطايا والتكفير عن ذنوبهم، الملقاة على عاتقهم بفعل الخطيئة الأولى

1 - أحمد شلبي: المسيحية، ص134.

2 - للاطلاع راجع: بول ماسون أوراسيل: الفلسفة في الشرق.

(خطيئة أدم)، «لأنه لم يُرسِل الله ابنَه إلى العالم لِيُدينَ العالَمَ بل لِيُخلِّصَ العالَمَ» [يوحنا 3: 17]. «وهو في عمله الأرضي يُمثِّل الأبَ في تطلُّعه إلى تخليص البشر من خطاياهم وقَدَرِهم المُظلم بسبب معصيتهم، بالمعنى الفلسفي فإنَّ وظيفةَ عيسى عليه السلام أشبه باللوجوس (الكلمة) في الفلسفة... وهو الوسيط الميتافيزيقي الذي من خلاله تمَّ خلقُ العالم. فعيسى ﷺ ليس فقط المسيح الذي يقوم بدور الخلاص المَوصوف في بعض أسفار الأنبياء، ولكنَّه التَّجسيد البشريُّ للكلمة الخالقة والمُخلصة التي وُجدت منذ الأزل، وهي إلهية بكل معنى الكلمة؛ فقد وُلد وكان قبل إبراهيم ﷺ، ومَن رآه فقد رأى اللهَ لأنَّه والأب واحد.»[1]، فالعلاقة بين المسيح والله هي علاقة تتجاوز الزَّمن، بمعنى أنها علاقةٌ أزليّة، فلم يكن في أي وقت من الأوقات وجودُ الأب دون وجود الابن «أنا والأب واحد.» [يوحنا 10: 38].

ويذهب يوحنا إلى أن المسيح حاز نعمةَ الله منذُ الأزل، تلك النعمة المُتمثِّلة بامتلاكه للسلطة من قِبَل الأب، تلك السلطة التي أهَّلته لِيُمارس ما كان الأب يُمارسُه من إحياء الموتى، وإبصار المكفوفين، وشفاء المرضى ... وغيرها من القدرات التي يَحوزها الأب نفسُه وأنعَمَ بها على ابنه (المسيح). «والذي رآني فقد رأى الأب ... ألستَ تُؤمِنُ أنيِّ أنا في الأبِ والأبَ فيَّ.» [يوحنا 14: 9]، إلا أن المقاربة مختلفة تمامًا في القرآن عند تفسير هذه المعجزات؛ فالمسيح ﷺ يُحيي المَوتى ويُبرِئُ الأكمَهَ والأبرص، ويَشفي المرضى، ولكن مع إقراره الكامل ﷺ بأنه حائز على هذه القدرة من الله – عز وجل - وأن كلَّ ما يحوز عليه من سلطان هو بإذن الله وبنعمة منه -عز وجل-: ﴿**وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: 49].

4 - ما فائدة تجسد المسيح في شكل إنساني؟

إن المسيح بتجسُّده بالشكل الإنساني قد أدَّى مهمّةَ المُخلِّص للإنسان من آلامه وعذاباته، وهو ما شرحناه سابقًا، وباعتبار السيد المسيح هو الوسيط الكوني بين الأب والبشر فقد قرَّرَ

1 - محمد خليفة حسن: تاريخ الأديان، ص.ص. 218 - 219.

مشاركةَ الإنسانِ هذه الآلامَ من منطلق حبِّه لهم، المُنطلِق أساسًا من الحبِّ الإلهي الأزليِّ للإنسان، وتتبلور بذلك عقيدة الحبِّ الإلهي والمحبة الإلهية، تلك العقيدة الأساسية في الديانة المسيحية، وتلك كانت طبيعة العلاقة بين السيد المسيح عليه السلام وتلامذته، الذين عاشوا مع المسيح معنى المحبة الإلهية التي تجسَّدت في شخص السيد المسيح لينظروا إليه بوصفه الله مُتجسِّدًا، «إنَّ حبَّ الله هو بالضبط ما شعر به المسيحيون الأوائل. لقد اختبروا حبَّ يسوع لهم، وأصبحوا مقتنعينَ أنَّ يسوع كان الله مُتجسِّدًا. عندما كان يصل الحبُّ إليهم لم يكن من الممكن إيقافه، فهو يُذيب حواجز الخوف والذَّنب وحبِّ النفس.»[1].

5 - اختلاف الطوائف المسيحية حول طبيعة السيد المسيح

قلنا سابقًا: إن النظرة إلى ثنائية اللاهوت والناسوت في شخص السيد المسيح كانت مثارَ جدل وخلاف بين الطوائف المسيحية: فمِن قائل أن كلمة الله، المسيح، قد أخذ جسدًا ناميًا فقط، وجاء اللاهوت ليدخل في هذا الجسد مُعطيًا إياه صفاتٍ كثيرةً، ومشاركًا إياه أيضًا في الصلب والموت. وكان (أبوليناريوس) هو من ذهب هذا المذهب، وذهب إلى تفسير عقيدة التأنُّس والتجسُّد تفسيرًا طبيعيًّا عقليًّا، وقال: «إن تأنُّسَ (يسوع) ناقصٌ، لأنه لم يظهر بشكل إنسان مرئيٍّ من غير أن يتجلَّى بروح إنسانية. وعلى هذا يرى (أبوليتير) أن في (يسوع) إنسانية كاملة مؤلَّفة من جسد إنسانيٍّ وروح إنسانية أيضًا. ولكنَّ ثمة عنصرًا إلهيًّا قد حلَّ محلَّ الجزء العقلي من الروح البشرية.»[2].

فيما نادى (بولس الشمشاطي)[3] بأن المسيح إنسانٌ حلَّت فيه الحكمة الإلهية بالمَحبة والمشيئة، ولذلك سُمِّيَ ابنَ الله، فـ «المسيح خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وأن ابتداء (الابن) من (مريم)، وأنه اصطُفيَ ليكون مخلِّصًا للجوهر الأنسي، صَحِبَتْه النِّعمةُ الإلهية، وحلَّت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سُمِّيَ ابنَ الله ... فالمسيح إذن ليس إلهًا في الأصل، وإنَّما

1 - هوستن سميث: أديان العالم، ص420.

2 - عادل العوا: المذاهب الفلسفية، ص67.

3 - بطريرك أنطاكية 268م.

فاز بنعتِ الأُلوهية بالتَّدريج.»[1]، أما (أريوس)[2] فقد ذهب إلى أن الكلمة ليس بذاته إلهًا، وإنَّما هو «كائن سماوي سبقَ الكائنات جميعًا: المَرئيّة واللاّ مَرئيّة، فذهب (أريوس) إلى أن الأب وحدَه الله، والابن مخلوق مصنوع.»[3].

وعليه فالابن مخلوق، ويحتفظ بمكانته كأول الخلق، أي أنه فعلاً خُلق قبل إبراهيم وإسحاق، وكان الأكثر كمالاً، ولكن صفاته هذه كلَّها لا تمنع من اعتبار «الابن البشري (المسيح) كان في وقت من الأوقات تابعًا للأب (الله)، ومن ثَمَّ فالابن المُقدَّس (المسيح) لا بدَّ أن يكون متأخِّرًا في الوجود عن الأب (الله)، أي أنه وُجد بعدَه، ومن هنا فقد كان هناك زمان لم يكن فيه المسيح موجودًا.»[4]. وعلى الرغم من استهجان أسقُف أريوس لآرائه إلا أنَّها كان لها تأثيرٌ بالغ في نفوس الكثيرين، وقد أخذَت صَداها الواسع، الذي استدعى الكنيسة لعقد «مجمع نيقية»، الذي سنُلقي الضوء عليه فيما يأتي من البحث.

وأما (نسطور)[5] فقد قال بفصل طبيعتي المسيح اللاهوتية عن الناسوتية، وانسحب هذا الرأي إلى النظر إلى (مريم العذراء) نفسها، فلم تَعُدْ «والدة الإله» إلا من حيث الناسوت فقط؛ لأن (مريم) لم تلد إلهًا، فالمَخلوق لا يَلِدُ إلهًا، وإنما ولدَت إنسانًا تحوَّل إلى اللاهوت، «ذهب (نسطور)، بطريريك القسطنطينية إلى أن (مريم العذراء) لم تَلِدْ إلهًا، بل ولدَت الإنسانَ وحسب؛ ثم اتَّحد ذلك الإنسان بعد ولادته بالأُقنوم الثاني، وهذا الاتحاد ليس اتحادَ مزجٍ ليَصيرا شيئًا واحدًا، أي أنه ليس اتحادًا حقيقيًّا بل مجازيًا. لأن الإله منحَه المحبّةَ، ووهبه النِّعمةَ، فصار بمنزلة (الابن). وهذا يَعني أن المسيح الذي خاطبَ أتباعَه وكلَّمَهم وحُوكم وعُوقب لم يكن فيه عنصرٌ إلهيٌّ قطُّ، فلم يكن إلهًا ولا ابن الإله.»[6].

---

1 - عادل العوا: المذاهب الفلسفية، ص65.

2 - الداعية المصري ورئيس كنيسة «بكاليا» في الإسكندرية.

3 - المصدر نفسه، ص.ص. 65 - 66.

4 - روبرت تشارلز زينر: موسوعة الأديان الحية، ج1، ص149.

5 - بطريرك القسطنطينية القرن الخامس الميلادي وكان من تلاميذ المدرسة اللاهوتية في أنطاكية، كما تأثر بآراء مدرسة الإسكندرية.

6 - عادل العوا: المذاهب الفلسفية، ص67.

وقد عُقد على إثر ذلك «مجمع أفسس» (431م) ردًّا على آراء (نسطور) هذه، وخرج هذا المجمع بلعن (نسطور) وطرده وتَنصيب (مريم العذراء) (عليها السلام) كـ «أم للإله»، ولم يتوقَّف الأمر عند هذا الحدِّ، فقد خرج (البابا كيرلس) -معاصر (نسطور)- بإعلان الحرمان على كلِّ مَن يُخالف البنود التي وضعتها الكنيسة حول طبيعة المسيح وعلاقته بالله ومريم العذراء، «وسَرى قرارُ الحرمان على قوم كثيرين ... فقد أصبح محرومًا كلُّ من لم يعترف بأن المسيح إلهٌ حقيقيٌّ، وأنَّ العذراء الطاهرة والدةُ الإله ... ومن لم يعترف بأن المسيح واحد فقط مع جسده وهو إله وهو إنسان ... ومن ميَّز الأصوات المذكورة في الكتاب المقدس وفرزها إلى أقنومَين فجعل بعضَها لإنسان وبعضها لإله ... ومن تجاسَر وقال إن المسيح الذي يَستعمل السُّلطانَ الإلهيَّ إنسانٌ ساذجٌ، ولم يُحْسِنْ أن يقول إنه إله بالحقيقة ... ومن قال أن 'كلمة الأب' هو ربُّ المسيح ولم يُحسِنِ الاعترافَ بأن المسيح هو نفسه إله وهو إنسان ... ومن قال إن الله الكلمة كان يفعل في الإنسان يسوع ... ومن تجاسرَ وقال إنه يَنبغي أن يُسجد للإنسان الذي أُصعد إلى السَّماء مع الله، وأن يمُجَّدَ معه أو يُسمَّى معه إلهًا كان هناك اثنين ... ومن قال إن المسيح كان مُمجّدًا من قبل الروح القدس بقدرة غريبة منه، كأن يتمَّ بها الآيات اللاهوتية في البشرية، ولا يقول إن الروح خاصة للمسيح، وإنه كان يُفعل به آيات اللاهوت ... ومن قال إن كلمة الله ليس هو الذي صار رسولاً، وتجسَّد وصار إنسانًا، وأن المسيح قرَّب نفسَه من الأب لأجل نفسه، ولم يُحسِنِ القَولَ أنه قرَّبَ نفسَه لأجل خلاص البشر ... ومن لم يعترف بأن جسدَ الرَّبِّ شاف مُحيي، ولم يُحسِنِ القولَ بأنه مُعطي الحياة لأن ذلك صار لكلمة الله خاصة، الذي هو قادرٌ أن يُحيِيَ الكلَّ ... ومن لم يعترف بأن 'الله الكلمة' تألَّمَ في الجسد، وصُلِبَ في الجسد، وذاق الموتَ، وأنه يكبر الأموات.»[1].

أما الكاثوليك فقد تبنَّوا الرأيَ القائل باتحاد طبيعتي المَسيح لفظًا، وفصلهما فعلاً، وتبعتها في هذا الرأي الكنائس اليونانية والبروتستانتية، على خلاف الأرتودوكس الذين تبنَّوا رأيًا يُفيد باتِّحاد طبيعتي المسيح لفظًا وفعلاً، وسرى هذا الرأي على الكنائس الشَّرقية من قبطية وسريانية وأرمنية، وكان أن نتجَ عن هذه الأفكار المختلفة حول المسيح وطبيعته أن انعقدت المجامع المسيحية

1 - سليمان مظهر: قصة الديانات، ص.ص. 409 - 410.

المتتالية. وفيما يلي تعريف بأهمها:

6 - أهم المجامع المسيحية[1]

أ - مجمع نيقية (325م)

عُقد من قبل الإمبراطور (قسطنطين) (إمبراطور الروم)، وكان في غالبيته ردًّا على مذهب «الأريوسية» -نسبة إلى (أريوس)- الذي عرضنا رأيه سابقًا، ورأينا أنه أنكرَ الألوهية على السيد المسيح، فقام (مجمع نيقية) للردِّ على هذا الرأي، وفرض الاعتقاد بألوهية المسيح، وأنه وُجد قبل الأنبياء، وجوهره من جوهر الأب نفسه، وكان أن جمع (قسطنطين) البطاركة والأساقفة في هذا المجمع، وكان عدد المجتمعين 2048، وقرَّر الإمبراطور فرضَ الآراء بالقوة، غير آبه لرأي الروحانيين المُوحِّدين، الذين نَفى عددًا كبيرًا منهم بعد أن أمر بقتل (أريوس) والمُؤيِّدين له، ولم يُبقِ إلا على 318 فقط من القائلين بالتثليث وبألوهية المسيح. وحتى أولئك لم يكونوا راضين بإقرار المساواة بين الأب والابن، إلا أنهم لم يستطيعوا التصريح بذلك لئلا يكون مصيرهم كمصير (أريوس) والتابعين له، فوقَّعوا على القرار والوثيقة التي خرج بها «مجمع نيقية»[2]، واتَّخذ المجمع أهمَّ وأخطر قرارات، وضعَ بها الأساسَ للمسيحية التي لا تزال تتَّبعها الكنائس، وكان أهم هذه القرارات:

- **إقرار ألوهية المسيح، وإقرار الصَّلب تكفيراً عن خطيئة البشر.**
- **عدم التصريح لمن يترمَّل من الكهنة بأن يتزوج مرة أخرى. كي يكون كلٌّ منهم كما قال (بولس الرسول): «بعل امرأة واحدة».**
- **اختار المجمع الكتبَ المُقدَّسة التي لا تَتعارض مع القرارات السابقة، وقرَّر تدمير ما عداها من الرسائل والأناجيل[3].**

ب - مجمع أفسس الأول (431م)

جاء ردًا على رأي (نسطور) من أن المسيح ليس بإله، ولكنَّه مُلهَمٌ من الإله. فخرج هذا

1 - للاطلاع راجع: محمد خليفة حسن: تاريخ الأديان، ص.ص. 226 - 227.

2 - أحمد شلبي: المسيحية، ص.ص. 147 - 148. (بتصرف)

3 - المصدر نفسه، ص198. (بتصرف)

المجمع بإقرار ألوهية المسيح ذات الطبيعتين، ومتوحِّد في الأقنوم. وهو ما شرحناه سابقًا.

ج - مجمع خلقيدونية (451م)

وقد جاء ردًّا على أصحاب «مدرسة الإسكندرية» القائل بألوهية المسيح، واتحاد اللاهوت والناسوت فيه، وأنه ذو طبيعة واحدة. فهذا المجمع قد أيَّدَ قرار «مجمع أفسس الأول» (المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وأن العذراء ولدَت إلهًا)، كما أنه رفض قرار «مجمع أفسس الثاني» إحياء آراء (نسطور)، وكان أن عُقد هذا المجمع بادئ الأمر في القسطنطينية إلا أنه انتقل إلى خلقيدونية، وكان من بين الحضور (البابا ديسقورس)[1] ومعه أساقفته، كما حضره أساقفةُ روما، وكان أن اشتدَّ الخلافُ والنِّزاع بين الأطراف، ونتج عن ذلك طردُ البابا وجماعتِه من الجلسة، وعليه فقد أقرَّ المجمع القولَ بالطبيعتَين والمَشيئتَين، ونُفي البابا بعيدًا عن مصر إثر رفضه طلب الإمبراطور المُصداقةَ على هذه القرارات، ومات البابا في منفاه، وظلَّ أقباطُ مصر يرفضون هذه القرارات تابعين بذلك لبطريك الإسكندرية[2].

د - مجمع القسطنطينية الأول (553م)

كان قد انعقد «مجمع القسطنطينية الأول» سنة 382م، وذلك ردًّا على ما جاء به (أبوليناريوس اللوديكي) المُتوفىَّ سنة 390م، وذلك بعد أن أعلن رأيَه حول طبيعة السيد المسيح «ومُؤداه تأكيدُه على البشرية للرَّبِّ المُجسَّد ... وبقبوله مفهوم التثليث البشري أو ذي الطبيعة البشرية باعتبار الكائن الحي جسدًا وروحًا ... لقد اعتبر أن تقديم طبيعتَين كاملتَين قد ينطوي على ثنائية شخصية أو شخصية مزدوجة: فطبيعتان تَعني شخصَين في ذاته (أي المسيح)؛ لذا فقد بشَّر أو علَّم بأن الكلمة أصبحت لَحمًا (جسدًا) دون نفس أو عقل بشري.»[3].

وقد أدانَ مجمع القسطنطينية ما جاء به (أبوليناريوس)، فرفض رفضًا تامًّا، وسرى عليه قانون الحرمان، وقد انبرى (القديس جريجوري) للدفاع عن هذا الحرمان فقال: «إذا وَثِقَ المَرءُ في إنسان بلا عقل أو نفس ... فهو حقًا بلا معنى، ولا يستحقُّ الخلاصَ على الإطلاق إلا من اتَّحد

1 - بطريك الإسكندرية.

2 - أحمد شلبي، المسيحية، ص199.

3 - روبرت تشارلز زينر: موسوعة الأديان الحية، ج1، ص155.

مع الله، فهو الذي بالإضافة لاتحاده مع الله ينال الخلاص"[1].

والحقُّ أنَّ ما ذهب إليه (أبوليناريوس) -في رأينا- يحطُّ من مكانة السيد المسيح (عليه السلام)؛ حيث إنه يُظهره بمظهر غير العارف بسرِّ وكُنْه رسالته التي أتى لإحيائها، وهذا يتناقض مع مفهوم النبوة نفسه، حيث إن النبيَّ يَقوم بعمله بكامل القناعة والإيمان، ويَعبد اللهَ ليس من منطق التَّسليم فقط، وإنَّما من منطق العارف والعالم بقُدسيّة رسالته وصِحّتها.

هـ - مجمع القسطنطينية الثاني

جاء ردًّا على مُنكري قيامة المسيح. ثم في عام 680م انعقد «مجمع القسطنطينية الثاني» لمعارضة ما جاء به (يوحنا مارون) من القول بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد. فكان ردُّ المجمع بأن المسيح طبيعتان ومشيئتان في أقنوم واحد. وحُرِمَ المارونيُّون من قبل كنيسة روما.

7 - هل دعت المسيحية إلى تأليه الإنسان؟

والسؤال الآن، وهو سؤالنا الإشكالي منذ البداية، وبعد كلِّ ما تقدَّم من بحث: هل الديانة المسيحية تدعو إلى تأليه الإنسان؟ هل نستطيع الإقرار بذلك بملء أفواهنا؟ .. والإجابة قطعًا النَّفي؛ فالديانة المسيحية في الأساس والأصل ديانة توحيدية، تَدعو إلى خالق واحد للوجود، لا قدرةَ فوق قدرته، ولا كلمةَ بعد كلمته، وكل ما في الأمر أن هذه الديانة قد تعشَّقت ببعض الأفكار من الفلسفات التي وَجدت طريقها إليها من هندية ورافدية وإغريقية، ورسمت صورةً لشخص السيد المسيح شبيهة بآلهة تلك الحضارات السابقة على المسيحية، وقد هضم بعضُ القساوسة والآباء المسيحيون هذه الحضارات، ووجدوا فيها بعضَ التَّفسيرات والتأويلات لما يعتمل في نفوسهم من تساؤلات، وصاغوها بما يتناسب ومذاهبهم وآراؤهم.

وقد استندوا في رأيهم هذا (حول ألوهية السيد المسيح) إلى بعض آيات وردت في الأناجيل، وأخذوها على هذا المحمل. ومن ذلك: «هذا هو ابني الحبيبُ بِهِ سُرِرْتُ» [متّى 3: 17]، و «في البدء كانَ الكلمة، والكلمةُ كان عند الله ... وكان الكلمة، الله كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء ممَّا كان. والكلمة صار جسدًا، وحلَّ بَيْنَنا، ورأينا مجدَه مجدًا» [يوحنا 1: 13 - 14] كما يُورد

1 - روبرت تشارلز زينر: موسوعة الأديان الحية، ص155.

بعضهم رواية عن (متّى) مفادُها أن رئيس الكهنة سأل السيد المسيحَ ذات مرة وقال له: أستَحلِفُكَ بالله الحيِّ أن تقول لنا: هل أنت المسيحُ ابن الله؟ فأجابه المسيح: «أنا هو.» [متّى 26: 26].

إلا أن ذلك كلَّه لا يعني بأي حال من الأحوال، ولا يقدم دليلاً قاطعًا غير قابل للشك، بأن المسيحية تُؤلِّه السيد المسيح بكل ما تعنيه كلمة «إله» من معنى، وكلُّ ما في الأمر حسب رأينا هو تأويل وتفسير لما ورد في الكتب والأناجيل المسيحية وفق هذا المَنحى. ودليلُنا أيضًا مأخوذ مما ورد في الأناجيل، وممَّا صرَّحَ به السيد المسيح نفسه، من ذلك: «الرَّبُّ إلهُنا إلهٌ واحد. وليس آخر سواه" [مرقص 12: 30-31]، و «هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل» [متى 21: 11]، «قد خرج فينا نبيٌّ عظيم» [لوقا 7: 16]. أما يوحنا فيروي عن عيسى ﷺ: «وأنا إنسانٌ قد كلَّمَكم بالحق الذي سمِعَه من الله» [يوحنا 8: 40]، و «إنيِّ أصعَدُ إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» [يوحنا 2: 18]. وهذا القول يَنفي الزَّعمَ بأن المسيح إلهٌ لأنه ابنُ إله، فابنُ الإلهِ إلهٌ –على حد زعمهم- ذلك أن المسيح نفسَه ﷺ قد أقرَّ أن الناس كلَّهم وليس هو فقط هم أبناء الإله. فالبُنُوَّةُ هنا بالمعنى المجازي، وليس بالمعنى الحرفي.

أما في أعمال الرسل فيُورد (بولس الرسول) رواية عن موسى ﷺ قال فيها للآباء: «إن نبيًّا مثلي سيُقيمه لكم الربُّ إلهُكم من إخوتكم، له تَسمعون في كلِّ ما يُكلِّمُكم، وكلُّ نفس لا تسمع لذلك النبي تُبادُ من الشعب وجميع الأنبياء أيضًا من صموئيل فيما بعده، جميع الذين تكلَّموا، سبقوا وأنبؤوا بهذه الأيام.» [بولس 3: 22-23]. وأما (برنابا) فقد أورد قولاً للسيد المسيح حول هذه القضية: «إنيِّ أشهدُ أمامَ السماء وأُشهد كلَّ ساكن على الأرض، أنيِّ بريء من كلِّ ما قال الناسُ عنِّي من أني أعظم من بشر، لأني بشرٌ مولود من امرأة وعُرضة لحكم الله، أعيشُ كسائر البشر، عُرضة للشقاء العام.» [برنابا 94: 1-2]، و «الحق أقول لكم من القلب: إنيِّ أقشعِرُّ لأن العالَمَ سيَدعوني إلهًا، وعليَّ أن أقدم لأجل هذا حسابًا لعمر الله الذي نفسي واقفة في حضرته، إني رجل فانٍ كسائر الناس، على أني وإن أقامني الله نبيًّا على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء وإصلاح الخطأة، خادم الله وأنتم شهداء على هذا» [برنابا 52: 10-14].

إذن الأدلة واضحةٌ وغير قابلة للشك، فالمسيح نفسه ﷺ قد أكَّد بما لا يَحتمل أيَّ جدل أنه إنسان فانٍ ككل الناس، أرسله الله رحمةً للناس، وليس عقابًا لهم، إنه نتاج محبة الله للبشر، وأتى لإصلاح الخطأة، وردِّ الناس إلى الطريق القويم، وتأكيد السيِّد المسيح نفسِه على إنسانيته ونفيه

لإعطائه صفةَ الألوهية قد ورد أيضًا في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَمُ الْغُيُوبِ ¤ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 116 - 117].

إذن فالديانة المسيحيةُ ديانة توحيدية، والسيد المسيح ﷺ نبيٌّ مُرسَل من الله لعباده؛ بغيةَ تقويم اعوجاجهم وإصلاح حالهم حتى يُرَدُّوا إلى الله ردًّا جميلاً.

خاتمة

مما تقدَّم: فإنَّنا نُقِرُّ أن لكل ديانة تفسيراتها وتأويلاتها في موضوع الأُلوهية، وخاصة عندما تُضفى هذه الصفة (الألوهية) على إنسان؛ ذلك أن تحميل هذا الكائن (الإنسان) صفاتٍ نوعيّةً (خلود، خلق، علم، ...) مما يتَّصف به الإلهُ نفسُه لا يتمُّ بالسهولة التي يعتقدها المرء، فهذا نتاج فكر حثيث وسعي دؤوب لفهم ذلك المُتعالي (الله) المُفارِق، الذي لم ولن يستطيع أي مخلوق وصفَه وتعريفَه تعريفًا جامعًا مانعًا، وكيف يستطيع ذلك وموضوع بحثه وتأمُّله هو ذلك الموجود المتعالي، الحائز على جميع صفات الخلود والدَّيمومة، والذي قُدرتُه فوق كلِّ قدرة، وعلمُه فوق كلِّ علم، كيف للناقصِ (المخلوق) أن يصف الكاملَ (الخالق)، كيف لعاجزٍ أن يصف القادرَ، وكيف لجاهل أن يصف العالِم، وفي نهاية بحثنا عن (تأليه الإنسان في الديانات السماوية) خرجنا بالنتائج التالية:

1 - خرج لنا الفكرُ الإنساني بنتاج تأمُّلاته للإله، وأضفى، في كثير من الأحيان، صفاتِ ذلك الإله عليه، والعكس صحيح، بمعنى أنه أضفى الصفات الإنسانية على الإله، وذلك في محاولة منه لربط العالَمين (عالم الله وعالم البشر) بروابط اعتقدها الإنسان متينة، حيث أنه خلق حيِّزًا من المشاركة بين العالَمين.

2 - كانت تلك أولى بذور فكرة «أنسنة الإله»، وبطبيعة الحال فهذا اقتضى «تأليه الإنسان»، فلا علاقة من طرف واحد بين العالَمين، إنها علاقة جدلية يَحمل كلُّ طرف فيها من صفات الآخر،

وبالطَّبع كما أرادها الإنسان أن تكون، وليس كما هي في حقيقة الأمر.

3 - لا شكَّ عندنا -وبنتيجة بحثنا- في أن التوحيد هو الرُّكن الأساس، والمبدأ الأول الذي خرجت به الديانات السماوية، والذي لا يستقيم أيُّ دين دون الإقرار والعمل به.

4 - لم نرَ في الديانة اليهودية أي فكرة غير قابلة للشكِّ والمناقشة تتعارض مع مبدأ التوحيد، وكانت اليهودية، وباعتراف الكثير من المفكرين، أُولى الديانات التي شرحت ليس فقط فكرة التوحيد وإنَّما أيضًا منهجَه وأساسَه، وصرَّح نبيُّ اليهودية (موسى عليه السلام) في أكثر من مناسبة، وبما لا يحتمل أيَّ شكٍّ أو تأويل، بوحدانية الإله، وضرورة الاتِّجاه إليه بوصفه الإله الواحد الأحد، الذي ليس كمثله شيء، ولا يُجاريه ولا يُدانيه أيُّ موجود آخر.

5 - وبالمثل: لم تكن المسيحية إلا ديانةً توحيدية، ولم يَظهر السيِّدُ المسيح عليه السلام إلا لترسيخ هذه الفكرة، وقرأنا كيف أنه أكَّد عليها، وكيف أنَّه تبرَّأ من أي فكرة لا تصبُّ في هذا المعنى، وأيِّ اتجاه لا يَذهب مذهبَ التوحيد.

6 - تشبَّعت الديانات السماوية -وبحثنا هنا في اليهودية والمسيحية- بكثير من الأفكار والتأويلات اللاحقة على هذه الديانات، وليست من أصلها، نقول: تشبَّعت بأفكار حاولت ليَّ عُنُقَ فكرة التوحيد، وألبستها لَبوسًا لم يكن فيها من الأساس.

7 - كانت هذه الأفكار الدَّخيلة على الديانتَين اليهودية والمسيحية هي نتاج التَّلاقحات الحضارية بين هذه الديانات من جهة، والديانات السابقة عليها من هندية ورافدية وزردشتية وغيرها من جهة أخرى.

8 - خرج بعض كهنة هاتَين الديانتَين بفَهمٍ ذاتيٍّ للرَّبط بين فكرة التوحيد من جهة، وفكرة تأليه الإنسان من جهة ثانية، وذلك في محاولة للتوفيق بين فكرتَين متناقضتَين من الأساس، ولا مجال للتوفيق بينهما.

9 - لم نجد في الدِّين الإسلامي من نحا منحى تأليه الإنسان، بكل ما يعنيه هذا المصطلح من معنًى، وإنْ كنّا نعثر على بعض الشَّطَحات والشَّذرات التي تَعزِف على هذا الوتر، وتُحاول أن تُعطِيَ بعضَ التفسيرات والتأويلات لآيات وأحداث مُعيَّنة، إلا أن تلك المحاولات كانت محدودة

جدًّا، وبقيَت في إطار ضيِّق لم يلقَ آذانًا صاغية إلا في النَّذر اليسير، وبقيَت فكرةُ التوحيد أساسَ الدِّين الإسلامي، وركنًا في غاية الأهمية لا يستقيم إيمانُ المرء إلا به، حتَّى إنَّ الذنوب التي يأتيها المرء قد تَشملُها المغفرةُ إلا الشرك بالله وعبادة موجود آخر معه ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء: 48].

10 - وقد زخر الفكرُ الإسلاميُّ بالكثير من الآراء الصَّريحة التي لا تقبل التهاوُنَ في هذه الفكرة مُنطلِقين من النص القرآني، الذي لا تكاد تَخلو سورةٌ فيه من التأكيد على عبادة الله الواحد الأحَد، الذي ليس كمثله شيء، ولا يُدانيه شيء، ولو كان في الكون آلهةٌ إلا الله لفسَدَ، ... وغير ذلك من الأمثلة التي لا مَجال لذكرها الآن.

في نهاية البحث نتمنَّى أن نكون قد وُفِّقنا في الإضاءة على هذه الفكرة (تأليه الإنسان في الديانات السماوية)، وأحرزنا ولو خطوة واحدة في هذا الطريق، وهو طريق طويل وشائك يَحتاج إلى الكثير من البحث والتأمُّل والصَّبر والعلم من باحثين ومُفكِّرين، يجب عليهم أن يتسلَّحوا بالموضوعية والشفافية، إضافةً إلى العلم والمعرفة، حتى يَقدروا أن يضعوا الأمورَ في نِصابها وموقِعها الصَّحيح، ذلك أن هذه الفكرة -وإن بدَتْ أنها قد نالَتْ حقَّها من البحث والشَّرح- إلا أنَّها ما تزال موقعَ جدلٍ وخِلاف ليس فقط بين المُفكِّرين والباحثين، وليس فقط بين المؤمنين بدين مُعيَّن والمنتسبين لمذهب بحدِّ ذاته، وإنما بين سواد الشعب الأعظم، الذي لا يُمكِنُنا أن نستهينَ بتأثيره البالغ في المجتمعات، وبقُدرته التي تُشبِهُ الطّوفان الذي يأخذ في طريقه الغثَّ والسمين على حدٍّ سواء. ولذلك فمن مُنطلَق انتمائنا لمجموع الباحثين، إضافة إلى منطلَق لا يقلُّ أهمية، وهو انتماؤنا للإنسانية في الأساس، يتحتَّم علينا أن نُدلي بدلونا، ونُقدِّمَ رأيَنا المُنطلِق من بحث دؤوب وتأمُّل عميق وإيمان بالغ حول مثل هذه القضايا الشائكة؛ ليكون بحثُنا هذا محاولةً متواضعة للتَّقريب بين الديانات، ومحاولة إيجاد الخيوط الأساسية التي تربط كلَّ دين بالآخر، علَّنا نُوفَّق في التقريب بين الأفكار التي تَبدو مختلفة للوهلة الأولى، ولكنَّها في الأساس هي من مبدأٍ واحد، ولعلَّ مبدأ التوحيد هو المبدأ الأكثر وضوحًا وتميُّزًا، الذي تتَّفق عليه الأديانُ السماوية. وتلك كانت إحدى أهمِّ أهدافنا من أبحاث تتناول فهمَ الإله والعلاقة بينه -عز وجل- وبين الوجود.

قائمة المصادر والمراجع

1 - القرآن الكريم.

2 - العهد القديم.

3 - العهد الجديد.

4 - أوراسيل، بول ماسون، الفلسفة في الشرق، ترجمة: محمد يوسف موسى، دار المعارف، مصر، لا ط.، 1947م.

5 - خليفة حسن، محمد، تاريخ الأديان، دار الثقافة العربية، مصر، لا ط، 2002م.

6 - دالي، ستيفاني، أساطير من بلاد ما بين النهرين، ترجمة: نجوى نصر، دار بيسان، بيروت، ط1، 1991م.

7 - زينر، روبرت تشارلز، موسوعة الأديان الحية، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، لا ط.، 2010م.

8 - الساموك، محمود، المعتقدات والأديان وفق منهج القرآن، دار وائل، الأردن، ط1، 2006م.

9 - سميث، هوستن، أديان العالم، تعريب وتقديم: سعد رستم، دار الجسور الثقافية، سورية، ط8، 2007م.

10 - شلبي، أحمد، المسيحية، مكتبة النهضة المصرية، مصر ط10، 1988م.

11 - ـــــــــــــــــــ، اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط8، 1998م.

12 - الصالح، عبد الحميد، التصوف، جامعة دمشق، دمشق، لا ط.، 2010م.

13 - ـــــــــــــــــــ، الفلسفة القديمة، دار ابن حيان، دمشق، لا ط، 1986م.

14 - العوا، عادل، المذاهب الفلسفية، جامعة دمشق، دمشق ط10، 2006م.

15 - الماجدي، خزعل، علم الأديان، مؤمنون بلا حدود، المغرب، ط1، 2016م.

16 - محمود الساموك، سعدون، المعتقدات والأديان وفق منهج القرآن، دار وائل الأردن، ط1، 2006م.

17 - مظهر، سليمان، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، مصر، لا ط.، 1995م.